مَلَاكٌ يُعَانِي البِطَالَةَ المُقَنَّعَةَ

بقلم : يوسف محمد المحميد

الثلاثاء 2018/6/5

الكلمات كائناتٌ حيَّةٌ تعيش فينا ومعنا، فهي مثلنا تُولَدُ وتَنْمُو وتَعْمَلُ وَتَتَسَلَّطُ وَتَتَطَوَّرُ وَتَمْرَضُ وَتَمُوتُ، وللكلمات روحٌ كما أنَّ لِكلِّ منَّا روح، وروحُها كروحِنا غامضةُ الكُنْهِ، نُسَمِّيها "المعنى" تارة، و"الدلالة" تارةً أخرى، وإذا كانت روحنا نفخةً إلهيةً في جسم الطين، فإنَّ روحَها نَفْخةٌ بشريةٌ تنفخها عقولنا في جسم الحروف .

وللمعاني أطوارٌ من التَّغَيُّر والتَّطوُر، تتبعُ أطوارَ عقولنا المتأثرة بالبيئة بشِقَّيْها الطَّبِيعيِّ والاجتماعيِّ، ولنأخذْ -على سبيل المثال- كلمةَ "العمل" وهي حسب علماء الصرف مصدرٌ للفعل "عَمِلَ" ، الذي يدل على إحداث تغييرٍ مقصود في الواقع يهدف إلى تشكيله بالصورة التي يتحراها "العامل"، ولندرسْ هذه الكلمة في عبارتين إحداهما قديمة ما زالت تعيش بيننا، والأخرى حديثة ظهرت مع تغير ظروف حياتنا .

العبارة الأولى : "**أنا أعمل**" ، وهي عبارة نُطْلِقُها لِنُخْبِرَ المُخَاطَبَ بأنَّنا منشغلون بتغيير شيءٍ في الواقع، فعندما يطلقها **المعلم** تعني أنه يغير واقع عقول طلابه، و**عامل المصنع** يقولها حين يغير واقع المواد الخام بين يديه، ويتحرك لسان **الفيلسوف** بهذه العبارة عندما يكون مشغولًا بتغيير واقعه العقلي، أما أخونا **السياسي** فهو يصرح بهذه العبارة حين يكون مشغولًا بتغيير واقعنا ليخدم مصالحه!.

أما العبارة الثانية فهي قولنا : "**أنا في العمل**"، فهي تحتمل معنَيَيْن ، الأول يكاد يطابق معنى العبارة الأولى (أنا أعمل)، أما المعنى الثاني فهو الذي نتج عن تطور حياتنا، وظهور أشكال جديدة من العلاقات، إذ إن كلمة "العمل" في هذه العبارة لا تؤدي معنى مصدر الفعل "عَمِلَ"، بل تؤدي معنى اسم المكان من ذلك الفعل، بمعنى أن كلمة "العمل" هنا تؤدي معنى كلمة "المَعْمَل" أي المكان الذي يحدث فيه فعل "العمل"، ولم أقع على نظير لهذا لاستخدام في كلام العرب، أو قد تكون من قبيل المجاز بالحذف وهو الأقرب، فالمقصود "**مركز العمل**"، وحُذِفَ المُضاف (مركز) كما في قوله تعالى على لسان إخوة يوسف: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾ ، فالمقصود (أهل القرية) لا القرية نفسها. وأكثر ما ترد هذه العبارة على لسان "الموظفين"، وهم الطبقة الجديدة التي أفرزها تطور مفهوم العمل والبيروقراطية في الدولة الحديثة.

فالعمل في عبارة "**أنا في العمل**" هو المكان الذي تحدث فيه أفعالٌ عديدةٌ قد يكون أقلها فعل "العمل"، ففيه "يلتقي" الموظفون و"يَتعارفون"، وفيه "يتذمرون" من أحوال البلد السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وفيه "يتصفحون" الصحف اليومية بحثًا عن مزيد من القضايا التي تغذي تذمرهم، أو "يحلون" الكلمات المتقاطعة مستخدمين قلم حبرٍ أو رصاص وَفَّرَهُ لهم "العمل"، ومع تطور التقنية صار "العمل" مكانًا يتيح مساحة زمنية للتواصل الاجتماعي الافتراضي مع بقية الموظفين في مراكز العمل البعيدة، أو مع العاطلين عن العمل المحرومين من مكتب وكرسي يجلسون عليه ليمارسوا كل الأفعال إلا فعل العمل، كما أنه يتيح مجالًا مكانيًّا وزمانيًّا للموظف الساعي إلى اجتياز مراحل اللعبة التي أدمن لعبها في هاتفه، وبهذا يُرضي ذاته ويحقق إنجازًا في حياته الوظيفية، بالإضافة إلى أن "العمل" يعطيك وقتًا تستطيع إنفاقه في توسيع ثقافتك السينمائية العربية منها والغربية وأحيانًا الهندية -إذا استطاع وقت العمل أن يغلب زمن الفلم الهندي-، فتتوسع مداركك الثقافية لتشمل ثقافات العالم لكن وفق الحدود التي تفرضها رؤية مخرجي تلك الأفلام ومنتجيها.

وتَبِعَتْ بعض الكلمات الأُخَر كلمة "العمل"، فطرأ عليها تَغَيُّرٌ شبيهٌ بالطارئ على العمل، فكلمة "الشُّغْل" تَرْتَدُّ كثيرٌ من معانيها المعجمية إلى ما يضادُّ كلمة "الفراغ"، والفعل "شَغَلَ" قريب من معنى الفعل "مَلَأَ"، ويستخدم كثيرٌ من الناس كلمة "الشُّغْل" للتعبير عن المكان الذي يَشْتَغِلُونَ فيه، أي يعملون على سد الفراغ فيه، لكن العجيب أن هذا الشُّغْلَ في حقيقته إنما هو سَدُّ الفراغِ بالفراغِ!، أي سد فراغ المكاتب من البشر بتوظيف "الموظفين" الذين يمارسون فيه نوعًا آخر من الفراغ الوظيفي.

أما كلمة "**الدوام**" فقد تكون أصدق لفظ للدلالة على تلك الأماكن التي نمارس فيها الفراغ أو العمل، فهي تَرْتَدُّ في دلالتها إلى معنى "الاستمرار"، سواءً الاستمرار في العمل أو في عدم العمل، وهذا يعطيها قدرًا من الحياد الوصفي، يجعلها صالحةً للتعبير عن أولئك الذين "يداومون" ليعملوا، والذين "يداومون" لكيلا يعملوا، وقد وظَّفَ صديقنا الشاعر أحمد السليمي كلمة "الدوام" في بيتين شعريين يصفان حال الموظف المسكين الطامح للعمل والإنجاز في وظيفة لا تتطلب ذلك -في كثير من الأوقات-، فقال:

"دَوَامِي" طَوِيلٌ لَيْسَ يَحْصُرُهُ زَمَنْ
أُزَحْزِحُهُ بَيْنَ التَّثَاؤُبِ وَالوَسَنْ
عَلَى مَكْتَبِي أَقْضِي النَّهَارَ كَأَنَّنِي
رَقِيبُ المَعَاصِي فَوْقَ كَتْفِ أَبِي الحَسَنْ

فقد شبَّهَ السليميُّ نفسه وهو في مكتبه بالمَلَكِ الرقيب الذي أُوكِلَ بوظيفة تسجيل معاصي أبي الحسن الإمام علي بن أبي طالب، وعَمَلِيًّا قد يكون هذا المَلَك من أكثر ملائكة الله معاناةً للبطالة المقنعة، نظرًا إلى أن عَمَلَهُ تسجيلُ معاصي رجلٍ لم تُؤْثَرْ عَنْهُ مَعصِيَةٌ قط!.